

أناشيد وأغانٍ واكبت التاريخ

المايسترو سليم سحاب

قائد أوركسترا وناقد وباحث ومؤرخ موسيقي - لبنان

مقدمة عامة

تعتبر الأناشيد الثورية والأغاني الوطنية من أهم العطاءات الإنسانية التي كانت ومازالت تواكب حياة الشعوب وثوراتها لاستنهاضها وتحريضها في مسيرتها الثورية للتغيير. وقبل ثورة فرنسا سنة 1789 لم تعرف الحضارة الموسيقية العالمية أغنيات ثورية بمعنى الكلمة. لكن عظمة الحدث الذي جاء ليغير مجرى التاريخ البشري وبحول التطور التاريخي في مرحلة الإقطاعية إلى مرحلة البرجوازية وتتويج هذه المرحلة بعد فشل تجربة كرامويل في إنجلترا بإسقاط النظام الملكي والملك نفسه لويس السادس عشر الذي دفع رأسه على المقصلة ثمناً لمحاولته اللجوء إلى الأنظمة الملكية الأوروبية لمساعدته على إخماد الثورة في بلده ما اعتبرته حكومة الثورة بمثابة الخيانة العظمى، أقول إن عظمة هذا الحدث أفرز أنواعاً موسيقية جديدة انبثقت من الثورة. وكانت أهم الأناشيد التي كتبت لها خصيصاً أناشيد الملحن الفرنسي إتيين نيكولا ميهول Etienne Nicolas Mehul (1763-1813). وقد كتب ميهول أناشيد كثيرة إبان الثورة الفرنسية استلهم بعضها الموسيقار الكبير بيتهوفن (1770-1827) في أعماله البطولية كالسيمفونية الخامسة وبالذات نشيد الانتصار في بداية الحركة الرابعة. كما استلهم واستعمل بيتهوفن من الأنواع الموسيقية الجديدة التي أفرزتها الثورة الفرنسية المارش الجنائزي بإيقاعه المعروف والذي استعمله في الحركة الثانية من سوناتته للبيانو رقم 12 وبالحركة الثانية من سيمفونيته الثالثة (البطولية). وكان هذا المارش الجنائزي يعزف في تشييع جنازة أبطال الثورة.

لكن الشهرة الكبيرة جاءت إلى ملحن وشاعر لم يدخل تاريخ الموسيقى من بابه العريض فهو لم يكتب إلا خمسين أغنية. إنه روجيه دو ليل Rouger de Lisle (1760-1836).

وقد عمل كمهندس في الجيش إبان الثورة الفرنسية 1789 . وبعد إعلان النمسا الحرب على فرنسا سنة 1792 ، ألف دو ليل أغنية كلاماً ولحناً سماها « أغنية عسكرية لجيش الراين » وقد قدر لهذه الأغنية أن تدخل التاريخ وهذه قصتها . كانت حكومة الثورة تحتفل كل سنة بذكرى الثورة بإقامة استعراض عسكري تشترك فيه قوات رمزية في الجيش من جميع أنحاء فرنسا . وفي سنة 1792 ومن ضمن هذه القوات اشتركت قوات جاءت من مرسيليا المدينة الواقعة في جنوب فرنسا على البحر المتوسط . وكانت تغني أغنية دو ليل هذه . لكن سرعان ما لفت لحن وكلمات الأغنية انتباه وأسماع الجميع بما فيهم المسئولون . فوزعها الملحن المشهور جوسيك وتحولت إلى نشيد الثورة وأخذت اسمها الجديد « المارسيلياز » نسبة إلى قوات مدينة مرسيليا الرمزية التي غنتها في احتفالات الثورة . وأصبحت منذ ذلك الوقت ولغاية الآن النشيد القومي لجمهورية فرنسا . ويمتاز لحن هذه الأغنية - النشيد بنبضه السريع وبدايته التي أصبحت القاسم المشترك لمعظم الأناشيد التي جاءت بعده وهي البُعد الموسيقي الرابع لفوق على السلم الموسيقي : من الدرجة الخامسة إلى درجته الأولى - الجواب . هذا البعد لفوق يشكل قفزة موسيقية تحتوي على عنصر الاستنهاض والتحريض والانطلاق ونجده في الكثير من الأناشيد المصرية التي سيأتي الكلام عنها .

نشيد آخر أصبحت له شهرة عالمية هو نشيد الأُمّية الذي لحن إبان أول ثورة نادت بالاشتراكية في العالم وبسيطرة الشعب على وسائل الإنتاج وهي ثورة كمّونة باريس La Commune de Paris ، وتحول إلى النشيد الثوري للطبقة العاملة في العالم وأصبح أول نشيد رسمي لدولة الاتحاد السوفيتي بعد الثورة البلشفية سنة 1917 . نظم كلمات هذا النشيد سنة 1871 الشاعر الفرنسي الذي شارك في ثورة كمّونة باريس أوّجين بوتيه Eugène Potier (1816-1887) ولحنه سنة 1888 العامل في فابريكة أثاث منزلي بيار ديجيتر Pierre Degeyter (1848-1932) . ويمتاز هذا النشيد كالمارسيلياز ببدايته (البعد الرابع صعوداً) التي تحتوي كما قلنا على عنصر الانطلاق والاستنهاض والتحريض وذلك بهذه القفزة الموسيقية ذات الأربع درجات لفوق .

تاريخ الأغنية الوطنية في مصر

يرجع تاريخ الأغنية الوطنية المعروفة في مصر إلى القرن التاسع عشر في أثناء الحكم العثماني. لكن الأغنية الوحيدة التي دخلت التاريخ كأغنية وطنية في تلك الحقبة كانت دور عشنا وشفنا الذي لحنه وغناه زعيم مدرسة التلحين المصرية في القرن التاسع عشر محمد عثمان (1855-1900) ويعرض فيه تعسف الحكم الأجنبي في مصر في تلك الحقبة. ويقول الدور في مطلعته :

عشنا وشفنا سنين	ومين عاش يشوف العجب
شربنا الضنا والأنين	جعلناه لروحنا طرب
غيرنا تملك وصبال	واحنا نصيينا الخيال

كده العدل يا منصفين ؟

لكن هذه الأغنية وبالرغم من كلماتها التي جاءت معبرة عن الحال المراد وصفه وانتقاده فإن لحنها جاء تقليدياً جداً حسب تقاليد تلحين الدور في ذلك الوقت وإن جاء عنصر تعبيرى في بدايته في جملة عشنا وشفنا على مقام الصبا المصور على الدرجة السادسة من مقام الراس (مقام دلنشين) الذي يحمل مرارة واضحة في اللحن.

ولم تبدأ الموسيقى الوطنية تظهر بقوالب جديدة كالمارش والأغنية الوطنية الحماسية إلا مع الشيخ سيد درويش، فظهرت معه مجموعة كبيرة من الأغنيات على إيقاع المارش : إحنا الجنود زي الأسود - أحسن جيوش في الأمم جيوشنا - الجيش رجع من الحرب بالنصر المبين، وغيرها الكثير توزعت كلها على مسرحياته الغنائية الثلاثين. وجاءت هذه الفورة من أناشيد للتعبير عن ثورة الزعيم سعد زغلول (1919) التي أجهضت بسرعة وانتهى معها عهد الأغنية النضالية برحيل سيد درويش سنة 1923. وتجدر هنا الإشارة إلى أغنيتين وطنيتين تحولتا إلى أناشيد وهما قوم يا مصري بلادي بلادي. وتمتاز هاتان الأغنيتان النشيدان في بدايتهما بالبعد الرابع صعوداً على السلم الموسيقي الذي يحتوي على عنصر الاستنهاض والتحريض والانطلاق هذا البعد الذي رأيناه في أشهر أناشيد التاريخة : نشيد المارسيليز ونشيد الأمية وهذا إن دل على شيء

فأولاً على اضطلاع سيد درويش على الموسيقى الغربية حتى الأناشيد منها وثانياً على تفهمه العميق لهذا البعد الرباعي المستعمل في بداية الأغنيتين كعنصر تحرير واستنهاض .

بعد سيد درويش همد صوت الأناشيد القومية بسبب التعتيم الذي فرضه الحكم في مصر على كل أعماله بسبب تأييده لثورة سعد زغلول (1919) . وبعد وفاة سيد درويش تظهر في لبنان أناشيد قومية وطنية وإن لم تكن ثورية، على يد الأخوين فليفل وهما ضابطان في الجيش اللبناني . وقد ظهر تأثر أناشيد الأخوة فليفل جلياً بالأناشيد والمارشات العسكرية الفرنسية لسبب أن هذه المارشات الفرنسية كانت ومازالت تعزف في الجيش اللبناني منذ عهد الاستعمار الفرنسي للبنان وهما من أبناء هذا الجيش . ومن أناشيد الأخوة فليفل التي اشتهرت جداً وانتشرت ومازالت بشكل واسع في المشرق العربي (بلاد الشام) : موطني - نحن الشباب لنا الغد - بلاد العرب أوطاني - وحماة الديار، الذي تحول إلى النشيد الرسمي لسورية .

ويبقى صوت النشيد القومي خافئاً في فترة الأربعينيات بالرغم من الحادث الجلل الذي زلزل المنطقة العربية، وأقصد ضياع فلسطين سنة 1948 ، ونذكر من الأغنيات القومية التي ظهرت في المشرق وكان يغنيها المجاهدون الفلسطينيون إبان حرب تقسيم فلسطين أغنيتين من ألحان الملحن السوري المشهور عبد الغني الشيخ غنتها الفنانة التي اشتهرت جداً في المشرق بأغنياتها البدوية لنفس الملحن وهي سهام رفقي . وهاتان الأغنيتان هما : مرحى مرحى التي تقول :

مرحى مرحى	قتلى وجرحى
مرحى مرحى بالملايين	قتلى وجرحى لفلسطين

وأغنية يا فلسطين جينالك والتي تقول :

يا فلسطين جينالك	جينا وجينالك جينالك
كلنا رجالك جينالك	تشيل حمالك جينالك

أما في مصر فإن أقوى أغنية عبرت عن هذه النكبة كانت قصيدة فلسطين (علي محمود طه - محمد عبد الوهاب - 1948) وقد أصبحت من كلاسيكيات أغاني فلسطين وهي ذات

طابع رثائي وهي خالية من الحماس مليئة بالحزن على ما حصل وكأن الملحن يندب ويرثي فلسطين الضائعة.

ومن أغنيات محمد عبد الوهاب الوطنية نذكر : مين زيك عندى يا خضرة (ويقصد العلم المصري القديم الأخضر) 1943 - قصيدة دمشق (1943) التي لحنها في أثناء ثورة العرب بقيادة سلطان باشا الأطرش في جبل الدروز في سوريا - نشيد العلم (أيها الخفاق) - نشيد (الجهاد) الذي يحتوي على عناصر كثيرة من أناشيد مثل غناء المجموعة والتوزيع واللحن الحماسي والإيقاع المتوتر، هذا إلى جانب المادة الموسيقية الرائعة - قصيدة (مصر نادتنا) لمحمود حسن إسماعيل (1948) ذات الطابع الرومانسي كما في أعمال شوبان في الموسيقى الغربية للبيانو : مجموعة البولونيز. كما لحن سنة 1951 نشيد (الحرية) لكامل الشناوي وقد منعت إذاعته في الراديو لسبب الطابع التحريضي والثوري في كلماته ولحنه وأدائه، وظل سجين أدراج الإذاعة لغاية ثورة يوليو المجيدة.

ثورة يوليو والأغنية الوطنية

ونستفيق ذات يوم على أغنية شعبية من أجمل ما يكون يغنيها محمد قنديل : عالدار (حسين طنطاوي - أحمد صدقي)، وتبدأ الأناشيد تنمو كالفطر مع وصول جمال عبد الناصر إلى الزعامة. ويلهم هذا التحول التاريخي الفنانين فتظهر على التوالي أعظم أغنيات وطنية وأناشيد في تاريخ العرب الحديث. وتنقسم هذه الأغنيات إلى مجموعتين كبيرتين : الأولى الأغنيات الوطنية العامة التي ظهرت من غير أحداث معينة مثل أغنية نشيد محمد قنديل العظيم (حي على الكفاح) وغيره، والأغنيات التي واكبت الأحداث التاريخية وعبرت عنها. إن ثورة يوليو مع أحداثها المتلاحقة قد جذبت كل الفنانين كما يجذب المغناطيس نشارة الحديد فبدأ عهد جديد للأغنية الوطنية والقومية في مصر.

أول مرحلة هامة عبرت عنها هذه الأناشيد كانت مرحلة تأميم قناة السويس (1956) والحرب التي سببتها. فإذا كان مزاج الأغنية الوطنية هادئاً في بداية الثورة فقد أخذ يكبر ويتغير

ويتجه إلى النضوج والحماس والتوتر والتحريض والاستنهاض مع الأحداث التي واكبت تأميم قناة السويس إلى أن وصلت إلى ذروته إبان العدوان الثلاثي. وشارك اللبنانيون الموجودون آنذاك في مصر في التعبير عن فرحتهم وفرحة الشعب العربي بهذا الحدث : حدث التأميم. فكتب محمد سلمان ولحن فلمون وهبي وغنت نجاح سلام أغنية « اليوم النصر » التي يقول أحد مقاطعها :

عبد الناصر يا جمال للغرب بتعطي أمثال
قللو السد العالي زال قللو أممنا القنال

ويلحن الفنان الشاب محمد الموجي إحدى أجمل أغانيه لأُم كلثوم : محلاك يا مصري وأنت عالدفة، إبداع صلاح جاهين.

وتنطلق الأناشيد العظيمة إبان حرب السويس وأشهرها : (دع سمائي) لعلي إسماعيل - (حاضرب لآخر نقطة بدمي) ألحان المهندس يوسف شوقي غنتهما فائدة كامل، مدفع الأغاني القومية. وأنوه هنا بنشيدين من أهم الأناشيد القومية : (الله أكبر) ألحان محمود الشريف، ونشيد (أنا النيل مقبرة للغزاة) محمود حسن إسماعيل - رياض السنباطي - نجاح سلام، وأنوه هنا بالتصوير الموسيقي الرقيق للكلام عند بيت :

يد الله في يدنا أجمعين تصب الهلاك على المعتدين

وبيت :

يد الله في يد مصر انقسم على كل باغ تصب العدم

ففي الشطر الثاني لكلا البيتين وتصويراً لكلمة (تصب) ينحدر اللحن هبوطاً على السلم الموسيقي لتصوير عملية (الصب) وهي من التعبيرات التصويرية الرائعة للسنباطي. وتلمع بين أغاني المعركة أغنية محمد الموجي ونجاح سلام : يا أغلى اسم في الوجود، التي تحولت إلى النشيد غير الرسمي لمصر. ولابد من ذكر الوجود اللبناني في المعركة بنشيد : من بيت لبيت، لحنه وغناه عفيف رضوان الذي حصل على الجائزة الثانية بعد (الله أكبر) في مسابقة أناشيد المعركة. ولا ننسى نشيد كمال الطويل الخالد لأُم كلثوم : والله زمان يا سلاحي.

أنتقل الآن لأهم الأعمال الوطنية لأهم الملحنين وأبدأ بمحمد عبد الوهاب الذي لحن 36 لحناً في هذه الحقبة، عدد كبير منها يعتبر من أهم الأغنيات القومية وأذكر منها : دعاء الشرق (محمود حسن إسماعيل 1954) - نشيد القسم الرائع (1955). وتبرز في أعماله أغنية عربية (كامل الشناوي) التي لحنها في ذكرى الوحدة مع سوريا. ولتنفس المناسبة لحن نشيده الرائع (يا إلهي انتصرنا بقدرتك)، كذلك ثلاثة أناشيد تعتبر أهم أناشيد قومية على الإطلاق وهي (الوطن الأكبر) و (الجيل الصاعد) و (صوت الجماهير)، وقد جمعت هذه الأناشيد كبار المطربين الموجودين آنذاك على الساحة الفنية وكان أول نشيد على هذا النحو (قولوا لمصر) الذي لحنه سنة 1956 لعيد جلاء آخر جندي بريطاني عن مصر، وهي الأناشيد الوحيدة التي جمعت كبار المطربين جنباً إلى جنب : شادية - عبد الحليم حافظ - وردة - فائزة أحمد - صباح - إلى جانب محمد عبد الوهاب وسعد عبد الوهاب ومحمد عبد المطلب وعبد الغني السيد وعبد العزيز محمود. ونذكر أهزوجة (بطل الثورة) و (دقت ساعة العمل) ونشيدي (ناصر) والأغنية الجامعة (صوت بلادي) كذلك (تحت القنابل - 1956).

ولابد أخيراً من ذكر الملحمة التاريخية الخالدة (ذكريات) التي تصف مرحلة تمتد على عشرات السنين والتي تتميز بالتفكير الموسيقي الملحمي والسمفوني الكبيرين.

من الأعمال التي لحنها وغناها محمد فوزي تبرز ثلاثة أعمال : كان وإن، ويشارك فيها كورال الأطفال، وأغنيته الرائعة (بلدي أحببتك يا بلدي) وأهم هذه الأعمال نشيد (قسماً بالساحقات الماحقات) عن ثورة الجزائر.

محمود الشريف، هذا العبقرى المقل، ذكرنا له نشيده الخالد (الله أكبر)، وقد تبعه بعد الحرب مباشرة أهزوجة شعبية من أروع ما لحن (عاد السلام يا نيل) بصوت مدفع الثورة فايدة كامل تدعو الشعب إلى البناء مع الإبقاء على السلاح في اليد. وتأتي الوحدة فيلحن محمود الشريف إحدى أعظم أغنياته : على الأحباب سلام الله وعالوحدته ما شاء الله، التي لم تفقد زخمها ومضمونها القومي والموسيقي لغاية الآن والتي تعبر بشكل إنساني شمولي رائع عن توق الشعوب العربية إلى الوحدة الكبرى من المحيط إلى الخليج أهم أحلام مرحلة الزعيم جمال عبد

الناصر. ومن أغانيه القومية القوية بصوت فايدة كامل يجب أن نذكر : البركان العربي الهادي جالو وقت وثار. وإلى جانب هذه الأغنيات التحضيرية تظهر أغنية وطنية رومانسية رقيقة جداً : وطني وصبايا وأحلامي.

كمال الطويل، جبرتي الثورة، هذا الفنان الذي أرّخ مع توأمه صلاح جاهين لكل التحولات السياسية والاجتماعية التي مرت بها مصر، بدأ بنشيد من أقوى وأعظم أناشيد القومية على الإطلاق : والله زمان يا سلاحي. مع بداية كهذه إذن حدث ولا حرج. أرّخ الطويل للثورة من خلال أغنيات دخلت التاريخ كأعمال موسيقية متفوقة. بدايته كانت : (إحنا الشعب)، و (يا جمال يا حبيب الملايين)، أهازيج تصف التفاف الشعب العفوي حول قيادة بطل الثورة. ثم تأتي الأغنيات الملحمية : بالأحضان - المسئولية - صورة - يا أهلاً بالمعارك - وحكاية شعب التي سنحللها بين الأغنيات الخاصة ببناء السد العالي، ولا ننسى أغنيته الرائعة بالأحضان التي تؤرخ للنهضة الزراعية والصناعية :

بالأحضان يا مزارع يا مصانع بالأحضان

وتأتي النكسة فيبدع الأبنودي والطويل الأغنية الومضة (فلاش) القصيرة جداً التي لا يتعدى زمنها الدقيقة والنصف والمركزة إلى أقصى حدود. ونذكر منها : أحلف بسماها، خللي السلاح صاحي، ولا يهملك يا ريس (أثناء النكسة)، وتحفته المركزة (يا بركان الغضب يا موحد العرب) كل ذلك بصوت مغني الثورة الأول عبد الحليم حافظ.

وكما بدأ الطويل إنتاجه الوطني برأئته (والله زمان يا سلاحي)، بدأه محمد الموجي برأئته : (يا أغلى اسم في الوجود) بصوت نجاح سلام (أثناء العدوان الثلاثي) وقبلها برأئته : ما أحلاك يا مصري وأنت عالدفة (صلاح جاهين وأم كلثوم)، وعلى راس بستان الاشتراكية. وفي أثناء حرب 1967 يبدع الموجي والأبنودي بصوت عبد الحليم حافظ إحدى أعظم الأغنيات الوطنية، لم تدع إلا عدة أيام فقط لسبب الحادث المؤسف الذي واكبته : أغنية اضرب، إحدى أعظم الأغنيات التحريضية الحماسية التي تدعو لضرب العدو لا لمجرد القتل بل :

لاجل الربيع لاجل الرضيع
لاجل الحياة ولاجل صناع الحياة
اضرب

ويتحفنا بليغ حمدي بأحد أعظم أناشيد المرحلة : سقط النقاب، الذي جاء مقتضباً مركزاً إلى أبعد حدود (أم كلثوم)، وبأغنية من أحلى أغنيات العبور : عاش إلهي قال.
رياض السنباطي لحن رائعة لأم كلثوم : بعد الصبر ما طال، عن انتخاب جمال عبد الناصر للرئاسة، وسبقها في نفس الموضوع :

يا جمال يا مثال الوطنية
أجمل أعيادنا القومية
برئاستك للجمهورية

وقد لحت هذه الأغنية بعد نجاحه من حادثة المنشية وكان كلام البيتين الأخيرين :

أجمل أعيادنا المصرية
بنجاتك يوم المنشية

وغنت أم كلثوم مجموعة كبيرة من ألحان السنباطي : حبيب الشعب - فرحة القنال - يا سلام عالمة - بطل السلام - ثوار - راجعين بقوة السلاح - بغداد يا قلعة الأسود (تحية لثورة العراق - 1958) - حولنا مجرى النيل.

الأغنية الوطنية والسد العالي

وبدأ الحلم الكبير، حلم بناء السد العالي، أحد أهم منجزات الزعيم جمال عبد الناصر، وجذب هذا الحدث مواهب الشعراء والملحنين والمطربين ليتغنوا بهذا المشروع العظيم الذي وعد مصر بالرخاء. فظهرت في تلك الفترة مجموعة كبيرة من الأناشيد والأغنيات للأسف لا نملك كل التفاصيل عن الكثير منها، من لحنها أو نظمها، وفي أية سنة كانت.

كانت أول أغنية ظهرت عند قرار البدء بتحويل مجرى النيل أغنية « حنبني السد » تغنيها مجموعة رجال جاء لحنها بسيطاً يحمل روح الإصرار من خلال الحماس في غناء المجموعة. وجاءت أغنية لكارم محمود « السد العالي » بلحن حماسي يتبادل فيه مجموعة الرجال مع المطرب الغناء بشكل حوارى. وغنت نجاة الصغيرة أغنية « سد عالي » الملحنة بأسلوب رقيق يليق بأسلوب نجاة الغنائي. ونذكر أغنية محمد عبد المطلب « الله يا سد عالي » التي لحنّت على طريقة غنائها المحببة. ثم أغنية شادية « بلد السد » وأغنية سعاد محمد « يا عمال السد ».

ونصل إلى الأغنيات الكبيرة التي عبرت عن هذا الحدث العظيم. ونبدأ بأغنية « السد » لأم كلثوم ونظم عزيز أباظة وألحان رياض السنباطي، وتتضمن القصيدة أبياتاً رائعة في بدايتها حتى يأتي البيت الذي يستعمل فيه الشاعر لعبة المفارقة اللغوية : يفتح الرزق وهو سد. وجاء لحن القصيدة بأسلوب رياض السنباطي التقليدي الكلاسيكي الذي عرفناه في قصائده لأحمد شوقي : ولد الهدى - سلوا قلبي - إلى عرفات الله - النيل وغيرها من القصائد العصماء.

أغنية ثانية لحنها السنباطي لأم كلثوم عن السد هذه المرة قصيدة زجلية نظمها عبد الوهاب محمد ويقول مطلعها :

حولنا مجرى النيل يا سلام على ده تحويل
حيكون تحويل لحياتنا مش بس لنهر النيل

وجاء اللحن أقرب إلى أسلوب السنباطي في أغنياته العاطفية. ويأتي ذكر السد في إحدى أروع أغنيات السنباطي لأم كلثوم من نظم عبد الفتاح مصطفى : طوف وشوف، حيث يقول في المقطع الثالث :

كل ده كانت كنوز الماضي شوف حاضر بلادي
شوف كنوز الثورة فيها والمواهب والأيادي
اللي بينهم سدنا يعلّى وفيض الله يزيد
يزحفوا بالمية تخلق م العدم عالم جديد

وجاء لحن هذه الأغنية بأسلوب حماسي ولكن صارم خاصة في المقاطع التي تغنيها مجموعة الرجال.

ومن أجمل الأغنيات التي تغنت بالسد أغنية صلاح جاهين ومحمد الموجي وعبد الحليم حافظ : على راس بستان الاشتراكية. وتبدأ بعبارة مفتاح أبدعها صلاح جاهين :

افتح افتح .. اقفل اقفل .. حوّل حوّل

واضح فيها تأثيره العميق ببيرم التونسي العظيم الذي كان في الكثير من الأحيان يبدأ قصيدته ببيت يختصر كل القصيدة كقصيدته لأم كلثوم « نصره قوية ». ويأتي التلاعب بالتصوير اللحني ليتماشى مع التلاعب بهذه الألفاظ :

افتح افتح على حوض الورد أبو ثمانين مليون شجرية

اقفل اقفل عالحيرة السيرة وهات شربات للكل

واقفل عينيك وافتحها تلاقى الشوك بقى فل

وتأتي ذروة الأغنية عند عبارة « حوّل » حيث يتحول اللحن إلى فرح شعبي جارف بإيقاع وثاب متدفق عند : حوّل يا ريس حوّل، حيث يلعب الكورال الرجالي دوره الأكبر في الحوار مع المطرب كل هذا على مقام الهزام الانفعالي المحبب عند الموجي وهو المقام الرئيسي للتواشيح الدينية.

ولحن محمد عبد الوهاب أغنيتين خصيصاً للسد : أولاها « ساعة الجد » وفيها خطان مختلفان واضحا يمشيان جنباً إلى جنب، غناء المطرب محمد عبد الوهاب الذي يعبر عن الأحداث المواكبة لبناء السد يغنيها بأسلوبه الرائع المعروف على نفس الإيقاع المتواتر الذي يرافق كل الأغنية ويهدأ عند الغناء المنفرد. الخط الثاني هو الذي يحمل التعبير الأساسي عن بناء السد يغنيه كورال الرجال على طبقات عالية متوترة وبلحنين مختلفين على إيقاع متوتر جداً تلعبه الطبول السيمفونية تصاحبها آلات إيقاع معدنية (كسيلوفون) تصويراً للمطارق التي تضرب الحديد.

أعظم لحن وضعه محمد عبد الوهاب للسد ومن أعظم ألحانه لأم كلثوم هو دون شك « على باب مصر » نظم كامل الشناوي. يبدأ اللحن بجملته ملحمية وكأن الحاضر ينظر بعيداً في التاريخ واضعاً يده على جبهته. ثم يبدأ الإيقاع على لحن وثاب قلق ومتوتر يعزفه الأوركسترا المطعم بآلات النفخ النحاسية : ترومبات وترومبونات وكورنوهات مع آلات الطبول السيمفونية لزيادة الشحنة الدرامية، ينساب بعدها الإيقاع الأساسي يعزفه آلات الإيقاع محلاة بعزف الترومبات كل هذا محاط بجو من العظمة الموسيقية العالية التي تعبر عن عظمة مصر قديماً وحديثاً وعظمة الحدث الموصوف.

بعد نهاية هذه المقدمة الملحمية تبدأ مجموعة الرجال بالغناء المليء بالرجولة والعزة والكرامة وينتهي غناءه بأسئلة تدخل في باب المفارقة اللغوية المحبة عند كامل الشناوي :

أمعجزة ما لها أنبياء ؟ أدورة أرض بغير فضاء ؟

بعد هذه المقدمة الملحمية يبدأ غناء أم كلثوم العظيم ماراً من عهد مينا (موحد مصر الفرعونية) إلى عهد جمال بوصفٍ موسيقي رائع. ويستمر السرد الموسيقي هذا ليصل إلى الزمن الحديث ويهدأ التوتر شيئاً فشيئاً لغاية ما يختفي نهائياً مع المقام الذي حمله ليفاجئنا الملحن بمقام البياتي الهادئ، مقام التجويد القرآني الذي يعكس الهدوء النفسي العميق، عند وصوله للمرحلة التاريخية المعاصرة : مرحلة بناء السد :

بسد منيع عجيب البناء

يبث الرخاء ويوحي الثقة

بعد ذلك يصل المؤلف إلى وصف إرادة الشعب الجبارة الذي لا يحول أي شيء دون وصوله إلى أهدافه : مارش (أنا الشعب) الذي يبدأه عبد الوهاب بمفاجأة لحنية كبيرة : بداية إيقاع مارش جبار على آلات الطبول السيمفونية يليها آلات النفخ النحاسية بجملته توحى بمقام العجم أو الماجير المعبر عن الفرح الجارف والأحداث العظيمة. فجأة تنزلق الأوركسترا الوترية العربية إلى مقام الراست الذي تعجز النحاسيات عن أدائه :

أنا الشعب لا أعرف المستجيلا
ولا أرتضي للخلود بديلا

لتنتهي الأغنية إلى صاحب الفضل في بناء هذا الصرح العظيم :

ومني الحقيقة ومني الخيال
وعندي الجمال وعندي جمال

تطلقها صرخة مدوية الأوركسترا ومجموعة الرجال وأم كلثوم.

هذا بالنسبة للأسلوب الملحمي للتعبير عن ملحمة بناء السد العالي . لكن الأسلوب الشعبي العظيم يتجلى في لحن كمال الطويل ونظم أحمد شفيق كامل : حكاية شعب (قلنا حنبلي).

تبدأ الأغنية وكأنك هابط بالمظلة وسط فرح شعبي عارم : الإيقاعات المتدفقة البهيجة الفرحة والزغاريد والتصفيق الموقع والقوي اللذين يستعملان هنا لأول مرة بهذه العظمة كأداة للتعبير الفني الموسيقي عن الفرحة الشعبية العارمة. وتبدأ الأغنية بالكورال الذي يغني لحناً شعبياً جارفاً ينضح بعبق سيد درويش الشعبي، ويقوي هذا الطابع الشعبي الجارف العملاق التصفيق الموقع والزغاريد لزيادة الجرعة الشعبية فيه. ويبرز عقب سيد درويش كذروة عالية في عبارة « هي الكلمة ودي إحنا بنينا » خاصة عند كلمة « الكلمة » وقفلتها. ولزيادة التوتر العالي المسيطر على هذا المطلع الشعبي العظيم يوقف الملحن التصفيق الموقع عند هذه العبارة ليرجع أقوى وأكثر توتراً وإثارة وتأثيراً انفعالياً عند إعادة المطلع « قلنا حنبلي ». ثم يأتي صوت مصر ممثلاً بصوت عبد الحليم حافظ ليتدخل في هذا الفرح الشعبي الجارف والعام : « إخواني » ولكن الشعب لا يسمعه من المرة الأولى فيستمر في هيجانه الجارف ليتوقف عند ثاني مرة يسمع فيها كلمة « إخواني ». ويبدأ « صوت مصر » بسرد الحكاية :

هي حكاية حرب وثار بينا وبين الاستعمار

مروراً بالاحتلال الإنجليزي ومشائق دنشواي لغاية ثورة يوليو المجيدة : يوم ما أشعلناها ثورة نور ونار، وصولاً إلى الجلاء و « رجوع الأرض الحبيبة الطيبة لإدين صاحبها » التي تأتي على

جملة رقيقة جداً خالية من كل التوتر الذي سبقها لتعبر عن تعلق الفلاح بأرضه كتعلق الطفل بأمه. ويأتي التفكير ببناء المستقبل مروراً بالنيل الذي تهدر مياهه بينما « الصحاري بشوق إليه » ، والتفكير ببناء السد ووقوف الاستعمار دون ذلك. ثم الضربة القاصمة التي وجهها الزعيم جمال عبد الناصر للاستعمار بتأميمه قناة السويس وفرحة الشعب : ضربة كانت من معلم ، ثم الاعتداء الثلاثي وانتصار الشعب المصري ثم بداية بناء السد. ولا ينسى السرد الشعوب العربية التي فجرت أنابيب النفط في سوريا ولبنان تضامناً مع الشعب المصري :

والعروبة ف كل دار وقفت معانا

وتصف الأغنية هذه الأحداث الجسام بكل بساطة وبكل عبقرية وبمستوى عالٍ من الإحساس والغور إلى الأعماق روح الموسيقى الشعبية بشكل شمولي إنساني خالد لم تعهده الموسيقى العربية إلا في أعمال سيد درويش.

وأخيراً فهذه مجموعة صغيرة اخترتها من حوالي سبعمائة أغنية وطنية والتي تشكل بدورها نقطة في بحر الأغنيات الوطنية التي أعطتها مصر قبل الثورة وبعدها بتفاعل الفنان المصري : شعراً ولحناً وأداءً مع هذه الفترة الثرية من تاريخ العرب الحديث. ويكفي هذه المرحلة أنها أعطت ثلاثة أناشيد أصبحوا الأناشيد الرسمية لثلاث دول عربية لم تكن ملحنة خصيصاً لها : قسماً بالساحقات الماحقات (محمد فوزي) نشيد الجزائر - الله أكبر (محمود الشريف) نشيد ليبيا الجمهورية لغاية الآن - والله زمان يا سلاحي (كمال الطويل) نشيد مصر لغاية كامب ديفيد ، إلى جانب الوطن الأكبر نشيد جامعة الدول العربية.